رمضان

فرصة لتعظيم الله

أ. ناهد السميري

ألقي في معهد الشاطبي في الرحاب

يوم الخميس ٤ شعبان ١٤٣٤

رمضان فرصة لتعظيم الله

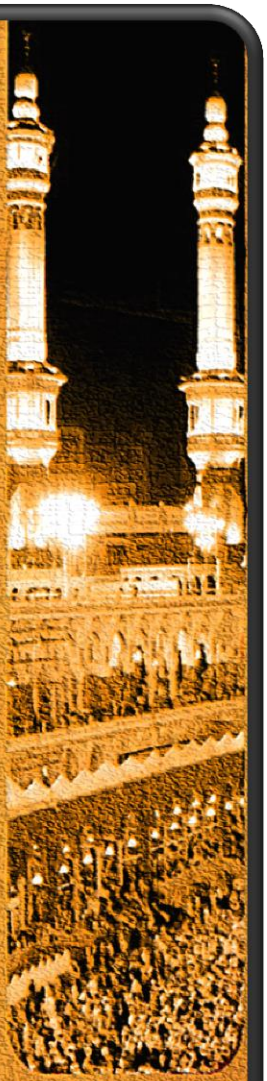

بسم الله الرّحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- ✓ هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- ✓ الكمال لله –عزَّ وجلَّ–، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

عناصر الدرس:

- هذا الشهر العظيم يحتاج منَّا عبادة عظيمة وهي عبادة الفرح.
- ما الصفات التي إذا اجتمعت في الشخص أصبح فرِحًا برمضان؟ والعكس: ما الصفات التي إذا اجتمعت في الشخص لايكون فرِحًا برمضان؟

1. {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا}
2. {وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا}
3. {وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا}
4. {وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ}

- الغفلة عن الآيات الكونية والشرعية.
- أنواع هجر القرآن.
- من هو الهاجر؟
- إشارة للنفاق.
- لتصل إلى العلم:

1. لا تعجل وأنت تقرأ.
2. وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا، الدعاء.

- نتيجتين يخرج بهما الإنسان عندما يقرأ القرآن كما ينبغي.
- لا بد من المشاعر الإيمانية.
- خمس قواعد لتزكية النفس في رمضان وكيف أن طريقها تعظيم الله:

1. ضع أمام عينيك "مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ"
2. {بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوأَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} استبصر نفسك.
3. الحزم {خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} استعمل مع نفسك الحزم خصوصًا في نقاط الضعف!
4. الاعتناء بالإخلاص.
5. كثرة مراجعة تصرفاتنا وأفعالنا مع الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمده-سبحانه وتعالى-ونشكره، ونسأله وهو المنَّان أن يمُنَّ علينا بالإيمان، ونسأله وهو الواسِع أن يوسِّع صدورنا ويشرحها باستقبال شهر رمضان، فإن نِعَمَهُ علينا تترا، ومِن أعظم المِنن أن مَنَّ علينا بالإسلام وحبَّب إلينا الإيمان، فاللهم زِدْنا حبًا للإيمان واستبشارًا به.

ونحن نلتقي في هذا اليوم وفي هذه الساعات المباركة نودّ أن نتعبَّد الله بعبادة الفرَح، وهذه العبادة أَمَرَ الله-عزَّ وجلَّ-بها تجاه شرعه ودينه وكتابه، فقد قال-سبحانه وتعالى-: {قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُو خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}[1] فإنّ العبد قد ابتُلي بما يَملِك من مشاعر، أعطاه الله إيَّاها من أجل أن يتقرب بها إلى الله، الله-عزَّ وجلَّ-الكريم الرحيم لمَّا أمرنا بالإيمان، وأخبرنا أخبارًا عظيمة عن الغيب، وأخبرنا عن الحقائق التي سنَلقاها بعد موتنا، جعل اليقين هو الحكم الفاصِل بين الإيمان والنِّفاق، جعل قوة شعورك بالحقائق هي الحدّ الفاصل بين الإيمان والنفاق، لذلك من مِنَنِه علينا أن أعطانا هذه المشاعر لكي نتقرب بها إليه، ومن المشاعر التي نملكها مشاعر الفرح، ونحن جميعًا لا نحتاج إلى تعريف للفرح ولا أن نذكر له وصف، فإننا جميعًا نعرف الفرق بين الفرح والحزن، ونعلم جميعًا أنّ الفَرَح إذا دبَّ إلى القلب؛ نَشِط البَدَن، وأن الحُزن إذا دبَّ إلى القلب؛ فقد البَدَن قُواه وإن كان يملكها.

فإذا أقبلت على هذا الشهر الكريم العظيم، كان عليك أول ما تهبُّ عليك نسائِمه أن تعبد الله بهذه العبادة، هذه العبادة أين مكانها؟ في قلبك. ما هي العبادة؟ أن تفرح. وإذا أردت أن تُثير لقلبك مشاعر الفرح ففتِّش عن إيمانك، فتِّش عن تعظيمك لله؛ لأن مظاهر الفرح بهذا الشهر لا يمكن أن تكون إلا من عبد مؤمن، وسنصف أولًا العبد الذي لايفرح ما صفته، ثم نقابل صفة العبد الذي لا يفرح بصفة العبد الذي يفرح.

ملخص ما سبق: أن هذا الشهر العظيم يحتاج منَّا عبادة عظيمة، نُقبِل عليه بعبادة عظيمة وهي عبادة الفرح، عبادة الفرح لا تكون إلا من شخص مؤمن. ما الصفات التي إذا اجتمعت في الشخص أصبح يستطيع أن يفرح ويكون حقًا فرِحًا برمضان؟ وما صفات الشخص الذي لا يفرح برمضان؟ لأن شعور الفَرَح ليس فيه كذب، إما صحيح مُستَبْشِر، وإمّا أنّ في قلبك ضَعف للاستبشار أو لا تَملِك شيء من الاستبشار.

(1) [سورة يونس: 58]

نبدأ بصفات الذي لا يستبشر برمضان، وإذا عرفناها سنعرف صفات الضد، وإن كنا أيضًا سندرُس صفات مَن لا يفرح.

نبدأ بصفات مَن لا يفرح فنقول:

يقول الله: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ}[1] بأي شيء؟ {بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} نبدأ بمناقشة الأربع صفات، وهي تنتهي بثلاث صفات إذا وُجدت في عبد يَبْعُد عنه أن يفرح بهذا الشهر العظيم.

1- {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا}

2- {وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا}

3- {وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا}

4- {وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ}

الأمر الأول: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا}

وهذه الصفة فيها مشاعر، لو وصفنا مشاعر شخص لا يرجو لقاء الله، ماذا سنقول؟ سنقول: هذا حاله أن الآخرة ليست على باله، ولا يُفكِّر فيها ولا ينتظِرها، ومن المؤكد أنه لا يعمل لها، ولكن قبل العمل نُريد أن نرى تفكيره في مشاعره، في اهتماماته، ما الذي يخطر على باله؟ هذا الذي لا يرجو لقاء الله معناه أن حياته دائرة حول الدنيا، فهؤلاء قوم ليست الآخرة على بالهم، لا يستعدُّون لها، لا يفكرون في لقاء الله، **والسبب: أنهم غير مُعظِّمين لله.**

فرمضان لا يكون زمن للانتفاع والاستثمار إلا إذا كان في القلب التفكير في لقاء الله العظيم.

إذا كنت تُفكِّر في لقاء الله العظيم سيكون فرحك برمضان فرح حقيقي، لماذا؟ لأن الذي يَعلَم أنه سيلقى الله غدًا-و(غدًا) هذا، قد يكون في أي ثانية-فمن المؤكَّد أن مشاعره بأنه سيلقى الله، ستَفتَح عليه أبوابًا من التفكير في الأعمال التي بها يكون صلاح اللقاء، أنت متأكد من أنك ستلقى الله، لكن هل لقاء الله دائمًا على بالك؟ يختلف الناس في كون اللقاء على بالهم، أي أن أهل الإيمان يشتركون في أنهم يؤمنون أنهم سيلقون ربهم، يشتركون في هذا لكنهم يختلفون في قوة الشعور بأننا بالتأكيد سنلقاه، وفي استحضار هذا الشعور الدائم.

(1) [سورة يونس: 7-8]

ولذلك في سورة ص أخبر الله عن المصطفين الأنبياء والمرسلين أن الله-عزَّ وجلَّ-أخلصهم بخالصة، ما هي الخالصة؟ {ذِكْرَى الدَّارِ}[1] فذكرى الدَّار أصلحت أحوال هؤلاء، دائمًا الآخرة على بالهم، دائمًا على بالهم أنهم سيلقون ربهم.

فمن كان يرجو لقاء الله -أي على باله دائمًا لقاء الله ويعرف مَن هو الله وعظمته وكماله وجلاله-سيَعمل من الأعمال ما يجعل هذا اللقاء حسن، فيأتي وقت هذا اللقاء ويظهر حُسن أعماله في هذا اللقاء، وهو في الدنيا يحتسب؛ أي أنه يقول في فؤاده: إن هذا الذي أعمله هنا أنتظر أن يكون سببًا لرضاك لمَّا ألقاك. يناجي ربه بقلبه، أي أنا أحتسب عليك يا رب أني لمَّا ألقاك تظلني بظل صَدَقَتي التي أرجو منك أن تقبلها، لما ألقاك أرجو منك أن تُبعدني عن النار بِصَوم يومي الذي صُمته، لمَّا ألقاك أرجو منك أن تقبل مني هذا البر وتجعله سببًا للأجور.

قال رسول الله-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))[2] ولا تتحقق كلمة (إيمانًا واحتسابًا) إلا إذا كنت على يقين أنك ستلقى الله. فالإشكال أن هذا اللقاء العظيم الذي لا بد أن يحصل، يفكر الناس فيه بتفكير سلبي بحيث أنه عندما يُذكُر لأحد الموت، تكون ردة الفعل أن يقول: (لا تُكدِّرنا، لا تُزعِجنا!) يشعر أن ذِكر الموت إزعاج! مع أن القبر أحسَن مَسْكَن لمن أَحْسَن، أي أن هناك في القبور مَن ينعَّمون بنعيم لو اجتمع نعيم أهل الدنيا مِن أنْ خَلَق الله الخليقة إلى أن تقوم الساعة، لا يكون شيء في نعيم أهل القبور الذين أحسنوا في دنياهم. فلماذا يُنظَر إلى الموت بهذه الصورة؟! رغم أن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: ((مَنْ أحبَّ لِقاء الله أَحَبَّ الله لقاءه، ومَنْ كَرِه لِقاء الله كَرِه الله لِقاءه))[3] فيجب أن يكون ذِكر الموت بعيدًا عن وِسواس الشيطان، لأن الشيطان أحيانًا يستعمل على ضعفاء الإيمان الموتَ ويخيفهم.

لنفترض الآن أننا ليس معنا أعمال، ومعنا أمثال الجبال ذنوبًا، وأنت حي تتنفس، وأنت تَعلَم أنك ستلقى ربك، فافزع إلى الله بالتوبة، وتُب وأنت صادق متيقّن أنه يَقبل توبة الصادقين، هذه الذنوب التي أمثال الجبال تذهب هباءً، تذهب جميعها ونحن على يقين أنه-سبحانه-يَقبل التوبة عن عباده مهما أجرموا؛ ما دام الشخص حي يتنفس لم يصل إلى الغرغرة فهو مقبول التوبة، ولو كان في سابِق عهده وَقَع فيما وَقَع من الذنوب ولو وَصَل حدّ الشِّرك، حتى الشِّرك يُتاب منه، ألم يكُن الصحابة أولًا مُشركين فأسلموا؟! إذًا حتى الشِّرك يُتاب منه، مادام الإنسان لم يَصِل حدّ الغرغرة وما دام أن الشمس لم تَشرق من مغربها.

(1) [سورة ص: 46]

(2) متفق عليه، أخرجه البخاري (2014)، ومسلم (760).

(3) متفق عليه، أخرجه البخاري معلقًا بعد حديث (6507)، وأخرجه موصولا مسلم (2684).

المقصود أن الذي يرجو لقاء الله لا ينظر للمسألة من جهة الموت على أنّه مُخيف، وإنْ كان كل الناس يكرهون الموت؛ لأنه لحظة انتقال صعبة، لكن مَن نَظَر على أنّ هذه اللحظة التي سينتقل فيها ستُبشِّره الملائكة أنه {لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} الملائكة تقول لأهل الإيمان: أن ما سَتُقبِلون عليه من الحياة الجديدة لا خوف فيها.

{وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} لا تحزنون على ما تركتم؛ لأن الإنسان عندما يموت سيترك أهله، فيُقال له: لا تَخَفْ ولا تحزن، فالذي ستُقبِل عليه لا يخيفك والذي تركته لا يحزنك، ستُبَدّل دارًا خيرًا من دارك، وستُبَدَّل أهلًا خيرًا من أهلك، وستكون في سكينة وراحة، هذا لمن أحسن. فالذي يُريد أن يكون ممن أحسن لا بد أن يكون لقاء الآخرة على باله.

أما من غَفَل وتَرَك التفكير في لقاء الآخرة ربما بسبب حبّ الدنيا والتعلُّق بها، أو ربما يكون الخوف والرعب الذي يدبّه الشيطان في قلب الإنسان. كثير منّا يتغافل عن ذكر الموت، إمَّا مِن حبّه للدنيا، وإمَّا من خوفه السلبي، وخوفه ليس في مكانه، كُن شجاعًا واجعل ذِكر الآخرة على بالك، وستكون النتيجة عظيمة. ما هي هذه النتيجة؟ أنك ستنتهز كل فرصة تجعل ما بعد الموت خير وبركة، لكن الذين لا يرجون لقاء الله ولا يُفكِّرون في لقائه ولا الآخرة على بالهم، تقول لهم: أتى موسمٌ الحسنات فيه مضاعفة، أتى موسمٌ فرصك فيه عظيمة، أتى موسمٌ ليلة القدر فيه خير من ألف شهر. فلا يشعر بأهمية هذه الفرصة، والسبب أن الآخرة ليست على باله.

فمن أراد أن يلقى الله وقد اغتنم كل الفرص، عليه أن يقوم بعملين:

1. أن يُذكِّر نفسه دائمًا بلقاء الله.
2. يقرأ دائمًا ماذا سيحْدُث للناس، ماذا سيكون في ذلك اليوم، ماذا سيحصل؟

لأنك لو تصورت أن في ذلك اليوم العظيم عندما تنتهي الحياة في الأرض، بعد النفخة الأولى التي لا تكون إلا على شرار الخلق -نسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن ينجينا من تلك الحالة-نترك النفخة الأولى، ونناقش النفخة الثانية التي تكون في أرض المَحشَر، لو تصورت تلك الحال وكيف أن الناس في ذلك اليوم تلتقي أرواحهم بأبدانهم، ثم كيف يلتقون ببعضهم، وكيف أن عُجب الذنب الذي هو مِثل حبّة الخَردل في الإنسان، وهو الشيء الوحيد الذي لا تأكله الأرض، يُمطر الله-عزَّ وجلَّ-من السماء مطرًا، فتَنبُت الأجساد كما ينبت الزرع، هذه فقط الأجساد، ثم يُنفخ النفخة الثانية، فتلتقي الأرواح بالأجساد ووقتها يكون أول من يَرفع رأسه هو النبي-صلى الله عليه وسلم-، ثم الناس في تلك اللحظة يتعارفون، بمعنى أنهم يكونون تمامًا على هيئتهم التي كانوا عليها في الدنيا ما تغيَّر فيهم أي شيء، لدرجة أنهم يتعارفون ولا يتناكرون. وبعد ذلك إن كانوا أهل التقوى اجتمعوا وانتفعوا من اجتماعهم وتذكروا لهم إخوان لا يرونهم معهم فيُلِحُّون على ربهم أن يشفعوا لهم-طبعًا هذه أحد مواقف يوم القيامة-وفي مقابل

هذا: {الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}[1]، في مقابل اجتماع أهل الإيمان على الإيمان هناك من يكونوا أخِلّاء لكن يتحولون إلى أعداء، فقط لو فكّرنا في هذا الموقف ونحن نرجو لقاء الله مُتيقنين، سنَحمِل هَمّ القوم الذين نتعرف عليهم في تلك اللحظة ويتعرفون علينا، هل كُنا حقًا أخِلّاء لله؟ أم كانت الدنيا هي التي جمعتنا؟ فإن كانت الدنيا هي التي جمعتنا سنتنكّر لبعضنا البعض، وستتحول العلاقة إلى عداوة، وإذا كان القوم اجتمعوا لله ومن أجل الله سينتفعون بذلك الاجتماع في هذا اليوم. لذلك انظر وراجِع الناس الذين معك، راجِع من اجتمعت معهم ببدنك، أو اجتمعت معهم بأجهزتك، راجِع هؤلاء وأنت ترجو لقاء الله، وتعرف أنه في تلك اللحظة سيكون الخلق إما أعداء وإما أخِلّاء، وأَصْل الاجتماع سيكون على التقوى في الدنيا.

فالمقصد أن هذا موقف من المواقف التي سَتمُر على الخلق يوم أن يلقوا ربهم. هل فكّرت فيه؟ وكل موقف من المواقف يجعلك في شيء مما تعيشه هنا، وأعظَم هذه المواقف أن تقِف بين يدي ربك، تُكلّمه ما بينك وبينه تُرجمان. فإن أردت أن يكون هذا اللقاء أحسن ما يكون لقاءً، عليك بكل نَفَسٍ من أنفاسِك تستطيع أن تنتفع به في دينك. متى يكون هذا؟ عندما يكون قد عَمُر قلبك رجاءً لِلقاء الله، لكن الذين لا يرجون لقاء الله ما حالهم؟ كل هذا التفكير غير موجود أبدًا.

عندما نقرأ هذه الآية: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا} يجب أن نُفَكّر في أنفسنا، هل هذه الصفة موجودة فينا: أننا لا نرجوا اللقاء ولا نُفكِّر فيه؟ أم فينا الصفة الثانية التي ذكرها الله في سورة الحشر عندما قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}[2]، بمعنى أنّ أهل الإيمان يُفكرون: أنا اليوم في هذه الفرصة التي أملكها، هل سأغتنمها لغدي القريب؟ أم أن الآخرة ليست على البال؟ أي قارنوا الآن بين قوم لا يرجون لقاء الله، وقوم اتقوا الله واستعدوا لغد، لذلك مباشرة بعد هذه الآية في سورة الحشر حذَّرنا الله من أمر خطير وهو: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ}[3]، نسوا الله! إذًا الذين لا يرجون لقاء الله ما اسمهم في سورة الحشر؟ نسوا الله، **ما معنى نسوا الله؟** فسِّرها بآية يونس، نسوا الله أي: لا يرجون لقاء الله، ولا يفكرون في لقائه، بل إذا ذكَّرهم أحد بلقاء الله حاولوا الهروب من اللقاء، هؤلاء قوم اسمهم: نسوا الله. ماذا كان جزاؤهم؟ {فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}[4]، **ماذا يعني أن ينسى العبد نفسه؟** أي ينسى مصالحه، تأتي عليه الفرص مثل هذا الشهر العظيم وهو ناسٍ لنفسه ومصلحته، فتكون دقائق هذا الشهر ليست مزرعة يَزرع فيها الخيرات ليَحصُدها يوم أن يلقى الله، ينسى أن يزرع في أرضه التي هي وقته، ينسى أن يغتنم رأس ماله، ينسى نفسه بمعنى أن الباب الذي يستطيع من خلاله أن يصل إلى ربه فينتفع، هو بنفسه ينساه. ربَّما فكَّر في كل شيء إلا نفسه يوم أن يلقى الله.

(1) [سورة الزخرف: 67]
(2) [سورة الحشر: 18]
(3) [سورة الحشر: 19]
(4) [سورة الحشر: 19]

مَن الذي ينسى نفسه؟ الذي ينسى أنه لا بد أن يلقى الله، فتكون النتيجة: إذا أتته الفُرص التي بها يُبارك عمره وينتفع بها ويلقى الله وهو راضٍ عنه لا يعتني بها.

مثال عن الحياة الدنيا: افترض مثلًا أخت ولها أخوات صغار، وأصبحوا يتامى، فكلما جاءها عريس رَفضت حتى تربي أخواتها، ثم تزوج الجميع وعاشوا حياتهم وهي بقيت وحدها في بيتها لم تتزوج، وقد انتهى الأمر بالنسبة لها، فبقيت وحدها، تأتيها لحظات تقول لنفسها: نسيت نفسي في مقابل أني خدمت الآخرين، والآخرين عاشوا حياتهم!

قِس مثل هذه الصورة على الآخرة، تأتيك فرصة يفترض منك أن تستثمرها، ستُضاعف لك الأجور، ستَلقى الله وهو عنك راضٍ، هذه أنفاسك التي تتنفسها في هذا الشهر وتذكر فيها الله وتقرأ القرآن سيحصل وراءها كذا وكذا. هناك مَن لا يُفكِّر في نفسه، يُفكر في كل أحد إلا نفسه، وهو يظن أنه بهذا يُفكّر في نفسه، فعندما يخدم كل الناس ويخدم كل الأشياء التي حوله ويخدم بدنه، ونفسه تقول له: (نَم) فينام، تقول له: (كُل) فيأكل، تأمُره وهو يقول: سمعًا وطاعةً، يظن أنه قد خَدَم نفسه، وهو في الحقيقة ماذا فعل؟ نسي نفسه، لأن من أَحسَن إلى نفسه هو الذي امتثل أمر الله: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}[1] وليس من أطاعها، {وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}.

فالمعنى أنَّ العبد إذا أراد أن يغتنم الأزمنة الفاضلة، ويغتنم رأس ماله وهو وقته، فعليه أوّل الأمر أن يتذكَّر الآخرة، ويجعلها على باله، والآخرة لا تأتي ذكراها بكلمة الموت، إنما ذكراها أن يبقى في بالك تفاصيل اليوم الآخر. فأنت الآن ستَرتَحِل رحلة قريبة، أوَّلها أن تقبض. فما معنى أن تُقبض؟ ومَن يأتي للقبض؟ وماذا يكون في المكان؟ وما علاماته؟ وماذا يحصل لروح هذا المقبوض؟ وكيف يحصل الانفصال بين الجسد والروح؟ إلى أن نصل لماذا يحصل في القبر وماذا يكون لكلا الطرفين؟ عندما تسمعون مثل هذا الكلام يجب أن تعرفوا أنَّ هناك قوم تقبضهم ملائكة الرحمة، وإذا قَبضتهم ملائكة الرحمة، يكون في المكان ملائكة من الرحمة بِسِعَة مكانه الذي هو فيه، هذا معنى أنه يُبشَّر، هذا معنى أنه في لحظة الفزع–التي يتصورها الناس على أنها فزع عظيم–يتحول إلى حالة من البُشرى. يجب أن تعرف ما الذي يحدث، هنا سيكون حالهم كذا، وإن لم يكونوا من هؤلاء الذين يُبَشَّرون سيكونون من هؤلاء الذين يحصل لهم الضد!

إذًا اعرف الحالتين وافعل الفِعل الذي يجعلك من أهل البُشرى، لا تُفكِّر أنك لا بد أن تكون من الضِّد، وابقَ دائمًا بين الرجاء والخوف، ترجو أن تكون من أهل البشرى وتخاف، فالذي يخاف سيستعمل التوبة، والذي يرجو سيستعمل العمل، فتخاف وترجو، وهذان الأمران يدفعانك من هنا للتوبة، ومن هنا للعمل.

لكن الذي لا يُفكر أبدًا في اللقاء ولا يعرف ماذا يكون لحظة القبر، ماذا سيكون عندما يقوم الناس من قبورهم، ماذا سيكون عندما يأتي الموقف العظيم، ماذا سيكون على الصراط، ماذا سيكون بعد ذلك عندما يأتي الديّان–سبحانه وتعالى–فيُحاسِب

(1) [سورة الشمس: 9:7]

عباده! هذا كله ليس على باله، ويقرأ في القرآن والسُّنة ولا يمرّ على خاطره أن ينتفع بهذه الأشياء؛ ***إذا كان الأمر ليس على البال فلن يعمل ولن ينتفع بالأزمنة الفاضلة***.

هذه أول صفة وردت في سورة يونس: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا}، وقابلناها في سورة الحشر: {فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} لكن نُريد صفة أهل الإيمان في الآية التي قبلها مباشرة {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}[1] أي أن الذين لا يرجون لقاء الله يقابلهم قوم قاموا بتقوى الله وكانوا يفكروا ماذا سيكون غدًا. هذه أول صفة متقابلة.

{إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا} أين ذهبت مشاعرهم؟ ما شَغَلتهُم الآخرة ولا لقاء الله ولا فكروا في غد، ماذا أشغلهم عن الله؟!

الأمر الثاني: {وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا}

المعنى أنهم دائمي التفكير: (أنا) ماذا أكون؟ ما منزلتي في الدنيا؟ ما منزلتي عند أهل الدنيا؟ ما موقف الناس مني؟ ما مدى رضاهم عني؟ كم لي من الدنيا؟! أي أنّ رضاه وسخطه وخوفه وغضبه كله دائر حول الدنيا! وإذا كانت هذه هي التي تهمّه؛ فلن تخطر الآخرة على باله.

ما مشاعر الشخص الذي رضي بالحياة الدنيا؟ مشاعره دائرة حول الدنيا: رضاه، سخطه، غضبه، كله دائر حول مكانه عند أهل الدنيا، أو كم حصَّل من الدنيا. فتجد الناس مثلًا يُمكن أن يناموا عن صلاة الفجر أو عن صلاة العصر، وقد ورد في الحديث: ((الَّذِي تَفُوتُهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ كَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ))[2] أي كأنما نزلت عليه المصيبة بمقدار أنه فقد أهله وماله مرَّة واحدة!

فالذي همّه الدنيا وتفكيره الدنيا، قد يؤخر الفرض والفرضين عن وقتهما، ثُم لا يجد في قلبه حسرة ولا يجد في قلبه حزن على نفسه، وإن فاتته الكلمة أو الكلمتين من رضا الناس، أو آذاه الناس بكلمة أو كلمتين تدُل على أنهم غير راضين عنه، قد يشتغل الليل كُله يُفكر ماذا قالوا؟ ماذا قلت؟ فمعنى ذلك أن كل مقاييس رضاه عن نفسه دائرة حول الدنيا! ولا يفكِّر ما ميزانه عند ربه! وإذا كان الإنسان لا يفكر في وزنه عند الله، فبالتأكيد لن يُفكر في أعمال تُثقّل هذا الميزان عند الله. إذا لم يفكّر الإنسان في كل حين أن ربه يَنظر إليه فيكون عنه راضٍ في هذه الحالة أو يكون عنه ساخط في هذه الحالة؛ سيُصبح عبدًا سائرًا في الدنيا لهواه! والسبب أنه لا يُفكر أبدًا في مقياس للرضا عن نفسه إلا ما مقدار ما حصَّل من الدنيا!

(1) [سورة الحشر: 18]

(2) متفق عليه، أخرجه البخاري (552)، ومسلم (626).

ولكي تقيس نفسك، اسأل نفسك دائمًا سؤالين:

السؤال الأول: إن فاتك شيء من فُرص الطاعات، **هل** يَشتعِل قلبك حُزنًا وألمًا وتشعُر بالحسرة؟ **أم** أنّ الأمر على التفكير في أنّ كل شيء يتصل بالآخرة له عِوض؟! (مثلًا اليوم لم تَقُم الليل، غدًا سأقوم، اليوم لم أصلّ الصلاة في وقتها، غدًا أصلي!) إذا كنت من النوع الأول فهذه إشارة الى أن هناك قلبًا حيًا، الدنيا ليست مقياس رضاك، أما إذا كنت من الثاني فهذه إشارة إلى القلب الميت الذي عنايته بالدنيا.

السؤال الثاني: إذا فاتك شيء من الدنيا ماذا يقع في قلبك؟ هل تشعر أنه عن كل شيء في الدنيا عِوض؟ أم أنّ الفرصة في الدنيا إذا فاتت لا تُعوض؟ مثلًا يقال لك: يوجد هنا أرض رخيصة اشتريها، فتجمع لتشتريها، ثم تذهب وتجد الناس قد اشتروها!، فتعيش يوم، يومين، ثلاثة أيام، وقد ملأتك الحسرة، وتَشعُر أن مثل هذه الفرصة لا تُعوض، وتتألم على نفسك أنك فوّتها، فإن كان هذا المقياس وهكذا الميزان فهذه دلالة على موت القلب!

إذا جمع الإنسان هاتين المصيبتين عليه من جهة أَمْر الآخرة وشأنها: إذا ما أَحسَنت في رمضان هذا فهناك رمضان القادم-هكذا تفكيره-وإذا ما أَحسَنت في اليوم الأول غدًا أُحسن، هذا تفكير سلبي دليل على برود، لا توجد حرارة! لا يوجد إحساس بالحسرة على فوات اليوم! قُربك لله يكون بحسرتك، تتحسّر أنه فاتك شيء من الخير. ثم إذا كان الأمر أيضًا على العكس في الدنيا، أي إذا فاتك شيء من الدنيا وَقَع في قلبك الحسرة، بهذا يتم للإنسان موت قلبه! أن يجمع بين المصيبتين:

المصيبة الأولى: أن يكون في قلبه من البرود تجاه فوات مواسم الطاعة ما في قلبه، ويَشعر دائمًا أن كل موسم طاعة له عِوض، هذه مصيبة بحدّ ذاتها! فإذا جمع عليها المصيبة الثانية: وهي أن كل مصلحة للدنيا إذا فاتت فيشعر بفوت شأن عظيم، ويشعر بالحسرة! بهذا تجتمع له مصيبتان، أي تم موت قلبه!

ما الحل لمثل هذا؟ التفكير في عظمة الله، معرفة الله، أنك أمام شأن عظيم، لا تُقدِّم المحسوس على الغيب وقد مُدِحت بالإيمان بالغيب! لا بد أن تعرف أن لكل واحد فينا ميزان عند ربه، وقد ورد في الحديث عن أنس: "أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ كَانَ اسْمُهُ زَاهِرًا كَانَ يُهْدِي لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْهَدِيَّةَ مِنْ الْبَادِيَةِ فَيُجَهِّزُهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، فَقَالَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتُنَا وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ)). وَكَانَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-يُحِبُّهُ، وَكَانَ رَجُلًا دَمِيمًا، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-يَوْمًا وَهُو يَبِيعُ مَتَاعَهُ فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَهُو لَا يُبْصِرُهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَرْسِلْنِي، مَنْ هَذَا؟ فَالْتَفَتَ فَعَرَفَ النَّبِيَّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَجَعَلَ لَا يَأْلُو مَا أَلْصَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-حِينَ عَرَفَهُ، وَجَعَلَ

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟)) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذًا وَاللَّهِ تَجِدُنِي كَاسِدًا! فَقَالَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((لَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ، أَو قَالَ: لَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَ غَالٍ!))" [1].

فهكذا الإنسان يُفكِّر في ميزانه، يجب أن تسأل نفسك في هذه اللحظة: مَن أنت عند الله؟! مَن أكون عند الله؟! هل أنا ممن يحبهم الله؟! إنّ الله يُحب المحسنين، إنّ الله يُحب المتقين، إن الله يُحب الصادقين، إن الله يُحب التوابين؛ إلى آخر ما تعرف.

هل أنت ممن يصلي عليه الله؟ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا(41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا(42) هُو الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ}[2].

من أنت الآن وأنت تمشي على الأرض؟ ومن أنت في السماء؟! وقد وَرَد في الحديث: ((مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَلَهُ صِيتٌ فِي السَّمَاءِ فَإِنْ كَانَ صِيتُهُ فِي السَّمَاءِ حَسَنًا وُضِعَ فِي الأَرْضِ وَإِنْ كَانَ صِيتُهُ فِي السَّمَاءِ سَيِّئًا وُضِعَ فِي الأَرْضِ))[3] فيجب أن تُفكّر: ما هي سُمعتك في السماء؟!

أما الذين رَضُوا بالحياة الدنيا فكل تفكيرهم: مَن أنا عند أهل الدنيا؟! يُفتن الإنسان بهذه الفتنة العظيمة؛ لماذا؟ لأن أهل الدنيا شُهود، أهل الدنيا ليسُوا غيبًا، أهل الدنيا أناس معك، كلامهم يؤثِّر فيك، نظرتهم تعجبك أو بالعكس، فلماذا تهتم بكلام أهل الدنيا بهذا القدر؟ وما تفكيرهم وما موقفهم وهل أعجبهم لبسك أو لم يعجبهم، وبيتك...إلخ وبالتفصيل تبحث عما يقوله أهل الدنيا، لماذا؟!

لأنه لا يرجو لقاء الله، لا يفكر في اللقاء، فما اتجه بقلبه وسأل: مَن الذي يهمك رضاه؟ لا يُفكر في الملك العظيم الذي لا بد أن يلقاه، لا يُفكر في هذا، ما عرف مَن هو الله العظيم، ولا على باله لقاؤه، فستكون النتيجة أن كل مقاييس الرضا عنده في أهل الدنيا، والغيب يسقط في المقاييس! فلا يفكر: من أنا عند الله ؟! ولذلك نحن دائمًا نردد على أنفسنا هذا السؤال:

أنا الآن في هذه اللحظة ماذا أكون؟!

فإذا شعرت بثُقل الذنوب استعمل التوبة تكن ممن يحبهم الله، تكن ممن يفرح الله بهم، فإذا أردت أن تكون من المحبوبين عند الله ابحث ماذا يحب الله، وكن صادقًا في العمل!

الذي يُفكر هذا التفكير ويأتي عليه موسم الطاعة وهو يَعرِف عظمة الله ويعرِف أن المكانة عند الله مهمة، سيُسارِع في اغتنام موسم الطاعة، لن يكون موسم الطاعة ثقيلًا عليه، بل كلما عصف في ذهنه أن هذا الزمن الآن يُحبّ الله فيه أن تكون مستغفرًا،

(1) صحيح ابن حبان.

(2) [سورة الأحزاب: 41-43]

(3) رواه البزار والطبراني وصححه الألباني.

هذا الزمن يحب الله فيه أن تتلو كتابه، هذا الزمن يحب الله فيه أن تقوم فتصلي، يُسارع لأنه يُفكِّر: كيف أكون عند الله عبدًا مرضيًا عنه؟، كيف أكون ممن يحبهم الله؟

ثم إنّ مَن قرأ القرآن بقلبه يجب أن يتعلق في ذهنه: مَن الذين يحبهم الله؟ ويَسخَط تعالى على مَن؟ ومَن يُقَرِّب؟ وعلى مَن يرضى؟ فهذا الذي يشغلك وأنت تقرأ القرآن! من هم أولياء الله؟ ماذا يفعلون؟

في وِردك هذا الشهر اعتنِ بكل آية فيها (إنّ الله يُحِبّ)، واجمع لنفسك بنفسك، لا تقرأ في أي مكان، فقط اقرأ من القرآن، انظر إلى القرآن وابحث من الذين يحبهم الله، ومن القرآن سيتبين لك!

عنصران لا بد من العناية بهما:

1. التفكير الدائم في لقاء الله. أنني سألقاه–ليس الآن–سألقاه عندما يأتي الموت، لكن متى الموت هذا؟ والموت يُفرّق بين الناس، ناس إلى روضة مِن رِياض الجنّة وأناس –والعياذ بالله–إلى حفرة من حفر النار! فاسأل نفسك: ما العمل الذي يوصِل الإنسان أن يكون قبره روضة؟ وافعله، واسأل نفسك: ما العمل الذي يجعل قبر الإنسان حفرة؟ واتركه! الأمر غاية في الوضوح إذا كنت مُنشغِلًا به! لكن إذا لم يكن القلب منشغلًا باللقاء فلن يعتني بالأعمال، ستأتي الفرص وتذهب وهو لا يفكر بها.
2. أن تُكرّر على نفسك: من أنا عند الله؟ الآن وأنت هنا في الدنيا في لحظات حياتك يجب أن تُكرِّر على نفسك من أنا عند الله؟ ما ميزاني؟ ما مكاني؟ هل أنا ممن يُحِبّهم الله أم لا؟ هل أنا ممن رضيَ الله عنهم أم لا ؟! وكلما زاد هذا السؤال صِدقًا كلما اندفع القلب للقيام بالعمل إخلاصًا؛ إذا كان هناك سؤالٌ صادق فسَيَخرُج العمل مُخلصًا، فتريد فقط أن يرضى ربنا! فما هو الإخلاص؟ أن تَجمَع قلبك على طلب رضاه وحده لا شريك له، لا تُريد أن ينظر أحد إلى عملك أبدًا.

ذكرنا صفة المخالفين: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا} ننتقل إلى وَصْف الأبرار مثلًا في سورة الإنسان، ماذا يقولون؟ {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا} انظر المحرك: {إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا}[1] ما الذي على بالهم؟ {يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} ماذا فعل لهم هذا الشيء الذي كان على بالهم؟ جعلهم يعملون عملًا خالصًا.

فالمقصد:

(1) [سورة الإنسان: 10]

أن العبد عليه في أول الأمر أن يجعل الآخرة على باله، عليه أن يجعل الآخرة عاصفة على باله.

والأمر الثاني أنه دائمًا يُفكر: في هذه اللحظة من أكون عند رب العالمين؟! فانشغال العبد بمكانه عند ربه سيدفعه إلى العمل الخالص.

الأمر الثالث: {وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا}

هذا الثالث سيكون لاحقًا للثاني، الذي يرضى بالحياة الدنيا ماذا يحصل له؟ يَتحوّل فيطمئن، متى يطمئن؟ كلما جاءت له الدنيا وأصبح له فيها مكانة، كلما وقع في قلبه الطمأنينة أنه في أحسن حال! بمعنى أنّ هذا الشخص لا يُزعجه إلا مصائب الدنيا، إذا نزلت عليه مصائب في الدين وفِتن في الدِّين شَعَر أنه أمر سهل يسير، لا تُزعجه مصائب الدين إنما تُزعجه مصائب الدنيا، فلا تَسمع هذا أبدًا يقول لك: أنا خائف على قلبي، أنا خائف على إيماني، أنا خائف أن أجلس مع هؤلاء فينقص إيماني. لا تسمع هذا منه أبدًا، لكن الذي يطمئن بالدنيا فكلمة الإيمان وضَعفه وقُوّته وأسبابه لا تمُرّ في الكلام، لا تسمعها أبدًا، تجده خائفًا من أن يذهب إلى هذا المكان مثلًا لكيلا يحسد! خائف أن يبرز هذا العمل لكيلا يُسرق منه عمله، خائف أن يسكن في بيت كبير فيأتيه كذا وكذا، طوال الوقت مخاوفه من جهة الدنيا وطمأنينته من جهة الدنيا، فلا تسمع منه: أخاف أجلس مع هؤلاء فينقص إيماني، أخاف أن أسافر هذه السَّفرة فيؤثّر على قلبي خصوصًا أني ذاهب إلى رمضان. لا تسمع هذا، لا تسمع حرصًا على الإيمان ولا تجده يتفقّد إيمانه. ثُم إنّ مِثل هؤلاء القوم الذين يطمئنون بالحياة الدنيا تجدهم غالبًا يُفسِّرون سوء أخلاقهم وسوء تصرفاتهم وقلة صَبرهم بأن الناس تغيّروا: لماذا تُعامِل الناس هكذا؟ لماذا لا تصبر؟ يقول لك: هؤلاء يستحقون، هؤلاء تغيروا، ومُعاملة الخَدَم مِثْل ذلك! فعدم الصبر بعد أن كان الشخص صبورًا إنما هو مؤشر لضعف الإيمان، عندما يقلّ صَبر الإنسان فهذا مؤشر لضعف الإيمان، لأنّ مَن يصبر مُحتسبًا ويحبس نفسه أن يُخرّج كل شيء فيه فهذا سيزداد صبرًا؛ لأنه يعرف أنه كلما كَظم الغيظ وهو قادرٌ على إنفاذه يَحصُل له من الأجر العظيم ما تعلمون. الذي يُفكّر في الآخرة وقد أغاظه أحد سيَحبس غيظه بسبب إيمانه. ضعيف الإيمان يُخرج الذي في نفسه دون أن يُفكّر، ثم يقول: أفعل ذلك لكيلا أمرض، لا أكتم في نفسي! أما الثاني فيحبس هذا في قلبه ويخرجه ويفرّغه بإيمانه أنه سيحصل لي كذا وكذا يوم القيامة. فالفارق هذا يجعل أهل الإيمان إذا فقدوا صبرهم عَلِموا أن نقص إيمانٍ أصابهم.

أُمثِّل بالصبر كنموذج في أن الذي لا يطمئن بالدنيا دائمًا يُفكِّر في إيمانه، وأن هذه التصرفات التي أفعلها تعكِس إيماني. يجب أن نعلم أنّ تصرفاتنا التي نتصرف بها إنما تعكس الإيمان الذي في قلوبنا، فعندما تجد نفسك طامعًا في الدنيا، راغبًا

فيها، خائفًا على الريال والريالين، فهذا معناه نقص في الإيمان: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ}[1] يوقَ شُحَّ نفسه من جهة أي شيء؟ من جهة إيمانه.

فالمؤشرات التي تظهر من المطمئن إلى الدنيا والتي تدل على نقص إيمانه لا يبالي بها، ما كان أمس عنده عظيم ولا يفعله -رمضان الذي مضى كان عنده عظيمًا ولا يستطيع أن يضيّع وقت السَّحر إلا وهو يستغفر-فإذا جاء وقت السحر في رمضان هذا ذهب في النوم، ذهب في لهو، ذهب في أي شيء، ولا يحزن! أصبح له عادة! هل تعرف ما الفرق بين رمضان الماضي ورمضان هذا بناء على هذا التصرف؟ نَقصَ الإيمان واطمأن إلى الدنيا! الطمأنينة إلى الدنيا تجعل مؤشرات الطمأنينة كلها حول الدنيا، أكْلُنا كامل، أشياؤنا كاملة وأغراض رمضان كاملة! أما إيمانك الذي عليك أن تَدْخُل به الشهر؟ لا يفتشه ولا يبحث عن أسباب زيادة الإيمان، ولا صوم كما في سُنّة النبي-صلى الله عليه وسلم-أن يصوم، فقد كان يُكثِر من شعبان في الصيام زيادة للإيمان، ولا مثل ما كان السلف يبذلون في أن يختموا في شهر شعبان القرآن ويتدبرونه من أجل أن يزيد إيمانهم، لا توجد عناية! بل وبسبب الأحوال والظروف في البلاد فوقت الصيف يعني وقت الانقلاب، وقت الانفلات! وقت أسباب ضعف الإيمان! لا الليل ليل ولا النهار نهار ولا هناك احترام لأوقات الصلاة ولا هناك بقاء للذِّكر إلا بذل جهد للّهو على أنه صيف، على أنه وقت قد قُرِّر عند الناس-أهل الدنيا-أنه وقت للانفلات! ولا هناك تفكير في أنّ هذه الحياة إنما هي مزرعتك للآخرة وليست وقتًا لأن تُؤجّل من الأعمال الصالحة، إنما عليك أن تبني حياتك ورضاك على الذي يرضي الله.

هذه المسألة متسلسلة: إذا فقد الإنسان النقطة الأولى التي هي رجاء لقاء الله، وفقد في ذهنه التفكير الدائم في لقائه؛ سيكون هذا الأمر سببًا لما يأتي وهو: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أصبح مقياس رضا الإنسان عن نفسه متى يطمئن وينام وهو ساكن ويشعر أنه أنجز، كل ما عليه إذا قام بالدنيا أما الآخرة فليست في تفكيره! ويزيد على هذا الأمر أمرًا: أنه عندما يرضى عن الحياة الدنيا ويصير مقياس الرضا هو الدنيا، يصبح لا يخاف إلا من الدنيا، وإذا أوتي الدنيا يشعر أن ليس هناك مخاوف، لا يوجد شيء يزعجه: لا إيمانه ولا صلاته ولا طاعته ولا قرباه!

الأمر الرابع: {وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ}

(1) [سورة الحشر: 16]

نأتي هنا إلى المشكلة الأساسية. أي أن {الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا} مشكلتهم الرئيسة أنهم عن الآيات غافلون، عن أي آيات غافلون؟ عن نوعي الآيات:

1- الآيات الكونية.

2- والآيات الشرعية.

الآيات الشرعية: التي أنزلها الله-عزَّ وجلَّ-على رسوله. أو الآيات الكونية: التي خلقها الله حولك. كلا النوعين من الآيات يغفل عنه.

نبدأ أولًا بالكلام عن الغفلة عن الآيات الشرعية:

أي في طريقة التعامل مع القرآن، فنحن بين مشكلتين في التعامل مع القرآن، وكلا المشكلتين تحت كلمة الهَجْر "هجر القرآن".

هجر القرآن نوعان:

1. إما هجر القراءة أو التلاوة: أي أنه من رمضان إلى رمضان يلتقي الناس بالقرآن، وهذا نوع هجر معروف.
2. أو هجر التدبر والفهم: وهو أكثر انتشارًا خصوصًا في أوساط الناس المستقيمين. بمعنى أننا نقرأ القرآن من أوله إلى آخره ولا نشعر أنه زادنا إيمانًا، ومما يدل على ذلك أنه لو قال لنا شخص: صِف لنا الله مما تحفظ أو تقرأ من آيات. أو قال: كيف سيكون لقاء الله وتفاصيل ذاك اللقاء مما تحفظ من القرآن. أو ماذا سمى الله يوم لقاءه من القرآن مثلًا؟ فيوم القيامة له أسماء في القرآن. فيكون الإنسان قارئًا وحافظًا ولا يستطيع أن يجمع هذا في ذهنه، والمفترض أن ما تقرأه وتحفظه يكون مردوده عليك أن تؤمن.

وصف الله-سبحانه وتعالى-في سورة الأنفال المقصود من قراءة القرآن قال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[1] الشاهد: {وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} وإذا زادتهم إيمانًا ما الصفة التي بعدها؟ {وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}، فإذا أردت أن يعمل القلب، أن يتوكل ويخاف ويرجو، أن يتعلق بالله معتمدًا على الله؛ اقرأ الآيات كما ينبغي، قراءة مَن تزيده هذه الآيات إيمانًا.

(1) [سورة الأنفال: 2]

هذه عِلّة العِلَل التي نعيشها، العلة في علاقتنا بالقرآن، وعلاقتنا التي يجب أن تكون بالقرآن هي علاقة القارئ الذي يقرأ رسالة يُعظِّم مُرسِلها ويَعلَم أنّ صلاح حياته على صلاح هذه الرسالة في قلبه، فحتى تقرأ القرآن كما ينبغي **يجب أن تقرأ القرآن على أنه رسالة لك وليس لغيرك**، فلو قرأت سورة الفيل مثلا التي يُخاطبنا الله جميعًا فيها، ماذا يقول في أول آية في سورة الفيل؟ {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}[1] ألم تَرَ: بعينك أم بقلبك؟ بقلبك، {أَلَمْ تَرَ} ماذا؟

{كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} فكم نقرأ هذه السورة في الصلاة وكم نكررها ونعرفها، وأمام هذه السورة يأتي سؤال: **هل رأيت بقلبك كمال صفات الله وقدرته وعظمته وحفظه ومشيئته فيما فعل في أصحاب الفيل؟** أين هذه الرؤية والله يقول لك وليس لأحدٍ غيرك: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} فالمفترض أن تجعل عين قلبك على هذه القصة ولا تفكر في الفيل! إنما فكِّر في فعل الله! وأصحاب الفيل معلومةٌ قِصّتهم، لكن على قدر شُهرة قصتهم فلا يقابل ذلك معرفة بفعل الله الذي أُمرنا أن ننظُر إليه. اقرأ هذه الآية مرات وانظر: ماذا أُمرت أن ترى بعين قلبك؟ فِعل الله، لم تؤمر بالتفكير في القصة كأحداث، أُمرت أن تفكر فيها من جهة أن هذه الأحداث تقول لك كيف يَكيد الله بالكائدين، فتُعلّمك درسًا عظيمًا من جهة عظمة الله وجبروته وملكه وحكمته وتمام عدله وأيضًا كيف أنه يكيد بالكائدين، فيقال لك: لو كادوا بك وجمعوا عليك الأرض لكي يكيدوك، ولو رأيتهم بعينك يكادون أن يبلغوا مُرادهم فانظر كيف فعل الله بأصحاب الفيل! خرجوا من بلادهم، وما أهلكهم ولا خسف بهم في بلادهم! إنما ساروا وساروا حتى أصبحوا أمام مقصدهم تمامًا، ثم في هذه اللحظة كادَ لهم؛ وهذا هو الكيد! لا تظن أن الكيد مباشرة في أن الله-عزَّ وجلَّ-يُهلك من عاداك! إنما الكَيْد أعظم من أن يحصل الإهلاك المباشر؛ معنى الكيد: أن يتصور هذا الذي يكيدك أنّه قد بلغ أن يفلح في كيده، ما بقي إلا ورقة واحدة يوقعها ويكون كذا وكذا عليك، الآن هو مُتأكد أنه سيصل، في هذه اللحظة يأتي كيد الله! عندما يبلغ الماكر أو الكائد حدّه في تصوّر أنه قد أفلح، في هذه اللحظة يأتي كيد الله. هذا الشيء كيف تفهمه عن الله؟ وكيف من ثم تطمئن لله؟ وكيف لا يكون في قلبك خوفٌ من المكر؟ عندما تقرأ هذه السورة كما ينبغي! وهذه السورة مع ترددها في الذهن لكن كم يكون غيابها في القلب!

هذا معنى {وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ}: آيات تدل على كمال الصفات، آيات تدل على أن ربك قريبٌ مجيبٌ حفيظٌ. فهذا الطفل الصغير الحافظ لسورة الفيل لو بُني في قلبه أنّ ربه حفيظ والدليل على ذلك قصة أصحاب الفيل، وأن ربه عظيم والدليل أصحاب الفيل، وأن الله له جبروته وملكه التام على كل شيء وله العزة، يخرج هذا الطفل ممتلئًا بالثقة بالله، لكن كم من آيات

(1) [سورة الفيل: 1]

حفظوها هؤلاء وحفظناها نحن ونرددها ونرددها، وبعد ذلك يكون اسمنا أننا هاجرون للقرآن، والسبب أننا ما رأينا بقلوبنا فعل الله وما يدل عليه من كمال صفاته.

انظر الهجر الآن: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} فهل قرأت وهل تدبّرت؟ هل قلّبت القصة وكيف كادهم وكيف فعل بهم؟ وانظر للموقف العظيم: هذه قريش وهذه أرضها، حتى قريش هربوا وما حَمَى البيت إلا ربه! ولن يحميك أحد إلا الله، ولا يغرنّك كثرة الناس حولك، لا يحفظك إلا إياه.

فهذا الكلام لو سمعه الطفل منذ نعومة أظفاره فأي يقين في قلبه عن ربه سيكون؟! لكن بهذا نفهم أننا نحن هاجرون لكتاب الله، وهذه أصل العلَّة.

{إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا} ما أصل علَّتهم؟ أنهم عن الآيات غافلون.

اقرأ مثل هذا في الفجر: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}[1] ضع كل واحدة من هذه أمامك واقرأها بالتفصيل، واعرف قصّتهم من القرآن ومن التاريخ، وانظر إلى آثار كمال صفات الله في التعامل معهم، وتكون بهذا لست هاجرًا، لماذا؟ لأنه قيل لك: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} فرأيت وقلّبت بصيرة قلبك في أفعاله-سبحانه وتعالى-.

مَن هو الهاجر؟

الذي يأمره الله وينهاه ويخبره عن كمال صفاته فينساه، هذا هو الهاجر للقرآن، ولذلك إذا لم يزدك القرآن إيمانًا فأنت على خطر؛ لأنه قد توارث في كلام السلف أن قومًا اجتمعوا على القرآن لا يقومون إلا في زيادة أو نقصان! لا يوجد حل ثالث. فإما يزيدك إيمانًا أو يكون سببًا للنقص، معنى ذلك أن الإنسان لو قرأ القرآن فزاده إيمانًا فقد سار إلى ربه في الطريق الصحيح، وإذا قرأ القرآن فما وجد في نفسه زيادة الإيمان فهو على خطر، والسبب أنه مثلًا يقرأ القرآن ولا يتدبره ولا يرى فيه العجائب، ثم يأتيه مَن يقول له: هذا قرآن عظيم، هذا قرآن مجيد، هذا قرآن تنزيل من عند حكيم حميد. فيسمع هذا المدح كله وما وجد في قلبه هذا الشيء، فماذا يحصل؟ يحصل في قلبه مشاعر أنني أسمع كلامًا لكني لا أرى شيئًا من هذا! قلبه يقول له: هذا فقط كلام نسمعه ولا نرى شيئًا! فيقوم عن القرآن وقد نَقَص ودبّ في قلبه ضعف الإيمان! وكثيرًا ما تمر هذه الخواطر على الإنسان ولا يعتني بها وهي تأكل إيمانه أكلًا! هي خواطر شيطانية لكن الإنسان يتركها فتستعمره. فعندما يسمع أن القرآن مجيد وعظيم يقول بلسانه مثلما يقول الناس: مجيد وعظيم، لكن لا يجد من هذه الكلمات في نفسه شيء، فيدخل على الخطر!

(1) [سورة الفجر: 6-9]

ولهذا قال الله في أول آية من سورة المنافقون لتكون حافظًا لنفسك من هذ الخطر العظيم: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}[1].

هذه الشهادة مكونة من جهتين:

الجهة الأولى: {نَشْهَدُ} وبهذا يصفون ما في قلوبهم.

والجهة الثانية: الخبر نفسه الذي يشهدون عليه: {إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}.

فالله يجيب عليهم يقول لهم: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}. قسِّم الجملة التي قالوها ثم ضع كلام الله على كلامهم...

- هم قالوا: (نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ)
- وجواب الله: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ)
- ثم (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)! أي أن شهادتهم كذب.

شرْح هذا الكلام:

هم قالوا حقيقةً إيمانية {إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} هذه حقيقة ليس فيها نقاش، لكن جاؤوا يصفون مشاعرهم تجاه الحقيقة فقالوا: {نَشْهَدُ} فقال الله عن كلامهم أنه كذب، وعلى ذلك قِس...

فكل مَن أتى بحقيقة إيمانية لا توجد بها مشكلة وتَكلّم عن مشاعره القلبية وهو لا يملك هذه المشاعر القلبية ويملك ضدها، يصبح كاذبًا كما حكم الله! على ذلك قِس...

يمكن أن نقول بألسنتنا حقيقة دينية في أن القرآن عظيم والقرآن مجيد، ثم يكون في قلب الذي يقول هذه الحقيقة الدينية عكس هذه المشاعر، فلا يجد في قلبه أن القرآن عظيم ولا مجيد لكن الناس قالوا وقال مثلهم، فما حكمه في كتاب الله؟ كاذب في كتاب الله!

إذًا الكذب الذي يجب عليك أن تعرفه هو هذا: أن تأتي إلى حقائق إيمانية تصف عليها مشاعر لا تملكها وتملك ضدّها ثم ترضى من نفسك هذا!

(1) [سورة المنافقون: 1]

ترضى من نفسك أن تكون مثلما قال الناس والقلب ليس مثلهم؟! ولهذا المصيبة العظيمة التي هي أصل المصائب العظيمة كلها أن تغفل عن التدبر القرآني؛ لأن القرآن عندما تتدبره يجعل هذه الحقائق تدخل إلى فؤادك فلا تصبح كلامًا تقوله فقط.

مشكلة المنافقين تكررت في سورة النساء وفي سورة محمد، ما مشكلتهم؟ الله-عزَّ وجلَّ-يقول: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ}[1] مشكلتهم الحقيقة أن حقائق الإيمان لم تدخل إلى فؤادِهم والسبب: عدم تدبر القرآن!

إذًا تدبُّر القرآن فيصل بين المؤمن والمنافق، فما علاقة هذا برمضان؟ علاقة واضحة...

المؤمن يغتنم، والمنافق يلعب، المؤمن يغتنم الأزمنة الفاضلة، يغتنم دقائقها وأنفاسها، المؤمن متأكد أنه سيلقى ربه، المؤمن يقرأ في القرآن أوصاف ذاك اليوم العظيم، المؤمن متأكد أن قومًا يرفعهم القرآن وقومًا يجرهم القرآن إلى النار! **ماذا يفعل تجاه القرآن وتجاه العبادة وتجاه الصوم وتجاه احتساب لحظات رمضان؟**

يجتهد

لكن الذي تغيب عنه حقائق القرآن وليست في داخله! ماذا يقول الله-عزَّ وجلَّ-في وصف المنافقين؟ {وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ}[2] ليس لهم قيمة. هل تعرف الخشب المسندة؟ إذا تكلَّمت معهم طوال الليل وقرأت عليهم القرآن، فهل يصبحوا الصباح مؤمنين؟ لا، فهذا وصف الذي كلامه جميل {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ}[3] يقول: أنا مؤمن وأحب الإيمان...إلخ وهو ألدّ الخصام، إذًا كلام جميل، إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، لهم منظر بهيج {وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ} وفي آخر الأمر فهؤلاء خُشُب مسندة، ما أكثر جمالهم ومدحهم وثناءهم على الدين والقرآن، لكن من الداخل فيهم فراغ، والسبب عدم تدبر القرآن، ولذلك يلامون! فالثلاث آيات التي وردت في القرآن في الكلام عن التدبر-بلفظ التدبّر-كلها أتت في سياق المنافقين، وأن مشكلتهم أنهم لا يتدبرون القرآن، فإن كان المنافق لا يتدبر القرآن إذًا ما صفات المؤمن؟ على الضد: يتدبر القرآن.

إذًا الغفلة عن الآيات هي سبب عدم معرفتنا بربنا، وعدم استعدادنا للقائه، أصبحت الدنيا شاغلةً لنا، ومكاننا عند الناس يشغلنا؛ والعلة في أننا لا نتدبر القرآن، لأن القرآن يُدخل علينا حقائق تستقر في قلوبنا، فإذا استقرت في قلوبنا سننطق بألسنتنا

(1) [سورة النساء: 82]
(2) [سورة المنافقون: 4]
(3) [سورة البقرة: 204]

بالحق، وإذا فهمنا هذه الحقيقة فعلينا في هذا الشهر الذي هو شهر شعبان أن نبذل الجهد في التدبر. اقرأ وأنت تريد أن تفهم {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً}[1].

خذ هاتين الوصيتين فقط...فإذا لم يكن عندك أحد يُعلّمك، لا تعلق نفسك بالناس، هذا العلم عطية من الله، لا يحجزك عن العلم ولا أي شيء: لا مواصلات ولا أشخاص أبدًا.

ماذا تفعل لتصل إلى العلم؟

1. لا تعجل وأنت تقرأ.
2. وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا، الدعاء.

الذي يملك أن يشرح صدرك للعلم ويملك أن يُيسّر لك الأسباب وأن يزيدك علمًا وفهمًا هو **ربنا الذي في السماء**، لم يجعل الله كل شيء تقوم به الحياة –شأن الحياة وشأن الآخرة–في يد أحد من الخلق، الحمد لله! لا أحد يستطيع أن يمنع الهواء كما أن لا أحد يستطيع أن يمنع عنك العلم أبدًا، فالمُلك مُلك الله لكن لا تعجل وأنت تقرأ (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) الدعاء، تكرار الدعاء.

سؤال من إحدى الحاضرات: كيف نشعر بالحقيقة الإيمانية؟ ما مثالها؟

الجواب: مثالها موقفنا من القرآن. فأنت سمعت بأن هذا القرآن مجيد عظيم. اسعَ أن تتحوَّل هذه المسألة حقيقة في قلبك تشعر بها، والطريق بالطبع هو التدبر. لا تشتت نفسك، ولا تقل: سأذهب لمنَ؟ أو: مَن يعلّمني؟ اعمل العمليتين: اقرأ بدون عجلة وقل رب زدني علمًا، والطريق هو الذي يفتحه–سبحانه وتعالى–. وكم كانت هناك آمال عند أشخاص أن يفهموا أو يتعلَّموا فجعلها الله حقائق ويسر الأسباب من حيث لا يحتسبون، لكن لا تسأل عن الأسباب! إنه يرزق أهل الأرض بأسباب لا يستطيعون إدراكها، يرزقهم ما تقوم به أبدانهم وما تقوم به أرواحهم. كم مهتدي اهتدى بموقف ما كان أحد يتصور أن يهتدي بسببه، وكم سامع للأذان كأنه يسمعه أول مره، انكشفت عنه الغمة. أسباب وصول الحق إلى القلب عجيبة لكن افعل ما أمر الله به: لا تعجل وقل رب زدني علمًا.

إن الله إذا نظر إلى قلب عبده فوجده صادِق الشوق إلى معرفته فتح له أبواب العلم عنه، لكن كن صادِق الشَّوق لأن تعرفه، الصدق الصدق مع الله، هؤلاء القوم كما في سورة التوبة تولَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألَّا يجدوا ما ينفقون، هؤلاء في النهاية ما أنفقوا ولا ركبوا ولا خرجوا للغزوة، لكن صِدقهم سُجِّل في السورة، سورة تُقرأ إلى قيام الساعة! والسبب الصدق! ما

(1) [سورة طه : 114]

أنفقوا ولكنهم تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا، هذا الصِّدق ما كان مردوده شيئًا ماديًا –أنهم أنفقوا–لكن جاء مردوده أن الله–عزّ وجلَّ–أثنى عليهم في القرآن.

المعنى: أنت تَعامَل مع ربك بالصدق، كم أمنية صادقة سَبَّبَ الله لك أسبابها، وإذا سَبَّبَ الله لك أسبابها فعليك أن تبادر بأخذها وأن تكون حذرًا وقت أخذها من البطر أو الكسل أو أن تخلف وعد الله، لأن في سورة التوبة قوم عاهدوا الله {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ}[1] ثم آتاهم الله من فضله. هُم عاهدوا الله أن يتصدقوا ويفعلوا كذا وكذا من الإحسان، فلما آتاهم الله بخلوا! الشاهد الذي هو بمثابة المصيبة أن الله تعالى قال: {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ}[2]! بمعنى أنك تَصدُق في طلب الفرصة للعلم فيُسَبِّب لك الله أسبابها، ثم لما تأتِ الأسباب تدخل في اختبار جديد وصعب، أصعب من عدم وجود الفرصة؛ لأنك إذا رسبت في الاختبار بعد أن ألححت على الله يأتِ بعدها عقاب أن يورث هذا العبد نفاق إلى أن يلقى الله، وهذا لا يخرجه من القلب شيء إلا أن يتغمّد الله العبد برحمته!

سؤال من الحاضرات: ماذا يعني قولك (إذا سبَّب لك الأسباب ولم تصدُق في أخذها)؟

الجواب: إذا سبَّبَ الأسباب ولم تصدق في أخذها مثل شخص عاهد الله أن أعطِني وأنا سأبذل، أعطاه الله فبخل!

نعود مرة أخرى: من قرأ القرآن بتدبر وعناية وزاد إيمانه، سيرى أن الأزمنة الفاضلة فرصته يتقرّب بها الى الله.

عندما يقرأ الإنسان القرآن كما ينبغي سيخرج بنتيجتين:

1. أنه يُعظِّم الله، يعرف مَن هو الله الملك القدوس السلام المؤمن المهمين العزيز الجبار المتكبر، وكلَّما قرأ القرآن رأى كيف يعامل أولياءه وكيف يعامل أعداءه.
2. سيسمع ماذا سيكون غدًا، ماذا سيكون عندما يلقى الله، كيف تستقبل الملائكة أهل الإيمان، كيف تستقبل الملائكة أهل النفاق، أهل الكفر، أهل الباطل، ماذا يكون، كيف يُوبِّخ الله أهل الكفر والنفاق، ماذا يحصل بين أهل الإيمان وأهل الكفر، كيف يُضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمه وظاهره من قِبَله العذاب؟ كل هذه التفاصيل تقرأها في القرآن ويُصبح قلبك مُستعدًا للقاء الله. ويطول الكلام عن الآيات الشرعية، هذا وحده مسار يحتاج إلى تفصيل ومناقشة ليكون سببًا لانتفاعك من الشهر. إذا قرأت القرآن كما ينبغي عظّمت الله فعظّمت مواسم الطاعة، وإذا عظَّمت الله يقع في قلبك أن الملك أعطاك مِنّة وهِبَة عليك أن تغتمنها.

(1) [سورة التوبة: 75]
(2) [سورة التوبة: 77]

نأتِ الآن إلى مناقشة الآيات الكونية:

ماذا يقصد بالآيات الكونية؟ الأشياء التي حولك التي خلقها الله. أول تقرير يجب أن نتفق عليه: أن المؤمنين يعلمون أنّ كل ما حَولهم من الأمور الكونية وُجدت بحكمة، وأعظم حكمة هي أن تعرف مَن هو الله وتستعد للقائه.

هناك حِكم كثيرة تفصيلية في كل مخلوق خلقه الله لكن في النهاية كلها تجتمع في شيء واحد، وهو أن الله أظهر لك في كل هذه المخلوقات آثار كمال صفاته لتستعد للقائه، ولكي نقرّب الصورة سنقرأ الآيات التي قبل هذه الآية مباشرة:

في سورة يونس {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا} قبل هذه الآية آيتين مباشرة {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ}[1] ثم أتى قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا} دعونا نفكر في الآيتان الكونية التي هي الشمس والقمر، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا} واختلاف الليل والنهار. اسمع الآية بتركيز {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ} من أجل أي شيء؟ هنا مصلحة في الدنيا، الحكمة في الدنيا {لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} شيء متصل بالدنيا، شيء من مصالح الدنيا، ثم تأتيك المصلحة العليا {مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ} يعني لكي تعرف الحق. ثم أخبر أن الذين سينتفعون بالحق هم القوم الذين يعلمون. فكّر ما هو الحق هذا الذي ستجده في هذه الآية؟ اعمل خطوة وارجع إلى الآية التي قبلها {إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} انظر إلى الشمس والقمر وستكون على يقين أنه-سبحانه وتعالى-يبدأ الخلق ثم يعيده.

- **الشمس** آية على الحق، على كمال صفات الله، على أن الله يَبدأ الخلق ثم يُعيده، كأنني أقول لك:
  - في كل يوم تُشرق فيه الشمس تقول لك: ها هي الولادة.
  - ثم عندما تصبح في كبد السماء تقول لك: ها هي الفتوّة.
  - ثم عندما تغرب تقول لك: ها هو الموت!
  - والذي بدأها هو الذي يعيدها غدًا...تولَد، تُصبح فتية، تموت.
- **القمر** نفس الآية لكن على مقدار الشهر، يولد هلالًا، يصبح فتيًا في البدر، ثم في المحاق يموت، ويعود.

(1) [سورة يونس: 5-6]

فهذه آية تدلك على أي شيء؟ على الحق الذي بدأ هذا هو الذي أعاده {يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} تمر آية الشمس والقمر بعدد أيامنا ولياليا ومع ذلك قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ} الغفلة عن الآيات! معناها أن العبد لا يُفكر أن الله خلق هذا الشيء من أجل أن أعرف عنه أي شيء؟!

مثلاً: أنت تطلع من جدة إلى مكة فترى الجبال العظيمة تدلك على ماذا؟ هذه العظمة تدلك على أي شيء؟ عظمة الله، لا تقل هذا الكلام بلسانك، لا بد أن تشعر به بوجدانك، وإلا سنرجع لنفس المشكلة: أننا نقول نفس الكلام الذي يقال لنا دائمًا وليس عندنا مشاعر؛ الحقائق الإيمانية لا تجعلها تجري على لسانك كأنك أنت الذي تعبر عنها إلا إذا وجدت مشاعرها في وجدانك. يمكن أن تقول بأن السلف كانوا ينظرون إلى الجبال فيشعرون بعظمة الله، لكن عندما تتكلم عن نفسك لا تقُل حقيقة إيمانية إلا بعد أن تشعر بها في وجدانك.

{وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ} أي تمر عليهم الآية بعد الآية ولا يفهمون دلالتها على عظمة الله-عزَّ وجلَّ-، إلى أن نصل إلى الخسوف والكسوف والزلازل ونصل إلى البراكين، إلى أن وصلنا إلى الحد الأعلى من أنواع الدلالات؛ فتأتي في إحدى القنوات مَن تقول لك: وإلى كسوف آخر!! يعني نلتقي في كسوف آخر!! من أعظم الاستهزاء، ولا نلوم القوم فليس بعد الكفر ذنب! المقصد: مَن الذي يُعاتب؟ يعاتب أهل الإيمان لأنهم عن آيات الله غافلين.

ثم اسمع: من أدقّ وأعظم آيات الله **تدبير الشأن**، تدبير شؤونك، هو {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ}[1] من أعظم آيات الله التدبير الذي يحصل لك، فأنت في كل يوم تمر بآية في تدبير الله: كيف وفَّقك؟ كيف مَنَع عنك؟ كيف صرف عنك الشر؟ كيف وفَّقك للخير؟ في كل يوم آية تخصك، تقرأ فيها أن مَن يُدبر حكيم عليم لو لم تتعجل! داؤنا العجلة. اترك أحداث يومك والتفت إلى تاريخك، نحن ما تأدبنا! المفترض أن أحداث يومي تعلِّمني عن ربي.

لأفترض أني ما تأدبت ومازال عقلي قاصرًا عن تصور أن أكيد هذا الحَدَث الذي شكله شرّ يأتي من ورائه خير، ارجع إلى الوراء وانظر إلى تاريخك كيف كنت بعيدًا وقرّبك الله، كيف كنت وحيدًا وجمع الله لك، كيف دبَّرك ويسَّر لك وشرح صدرك وأبعدك وكان عندك أقران وافترقت عنهم وأصبحت أنت في طريق وأقرانك في طريق، كيف دبَّر لك أن تصل وتسير على طريقه تستقيم، كل هذه آيات تخصُّك أنت! وكم كان عندك مخاوف حفظك الله منها، وكم أصابك الضر فكشفه عنك، وكم كنت ترغب في نفع أعطاك رغدًا من هذا النفع، كل هذه آيات تخصُّ العبد في نفسه وفي خاصة أهله. ماذا عليه أن يفعل تجاهها؟ أن يُكثر ولا يغفل عن آيات الله!

(1) [سورة يونس: 3]

لكن نعود مرة أخرى فنقول: تداخلت الشؤون على العبد، فَقَدَ حُسن التفكير! لم يُفكر كما ينبغي، مطامعه وشهواته غلبته، ما أصبحت تزكية نفسه غايته، هنا الأزمة!

فهناك مَن لا يُؤدّب نفسه، بل يجعل نفسه تتمرد تَكْبُر، لا نريد أن نقول بأننا في زمن شُحّ مُطاع ولاهوى مُتّبع ولا إعجاب كل ذي رأي برأيه، **لكن غالبًا في المواقف تجد هذه الثلاثة:**

1. شُحّ مُطاع: نفسك تبخل فتجعل أغراضك على جنب.
2. هوى مُتَّبع: هي فقط تأمرك وأنت تقول: سمعًا وطاعة.
3. إعجاب كل ذي رأي برأيه: وأنت تسمع كل يوم مَن يتكلم من عقله ويقول: من غير المعقول أن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال هذا! هذا غير معقول من الشريعة! يكلمنا عن عقله!!

هذا كله خلط علينا، فأصبح الناس في النهاية لم يُحددوا الهدف المطلوب ومن ثَمّ لن يبلغوه! ما الهدف المطلوب؟ قال لك الله-عزَّ وجلَّ-: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}[1] فأنت في الدنيا تُؤدِّب نفسك، تزكيها، تخط بها طريق التزكية، لا تُطاوع نفسك!

(1) [سورة الشمس: 7-10]

نتكلم باختصار عن تزكية النفس في رمضان وكيف أن طريقها تعظيم الله

إذا فَهِم الواحد منا أنّ دوره في الحياة أن يزكّي نفسه، ماذا سيفعل؟

خمسة قواعد لتزكية النفس:

القاعدة الأولى: ضع أمام عينيك: "مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ"[1]

أي أن تترك ما لا يعنيك للتفرغ من أجل ما يعنيك.

من أجل أن تنتفع من رمضان: عَظِّم الله حق تعظيمه واترك كل ما لا يعنيك، فأكثر ما يشغل قلبنا أشياء لا تعنينا! أشياء ليس فيها صلاحنا! أشياء ليس فيها تزكيةً لنفوسنا! فقط أنفسنا تأمرنا ونحن نقول سمعًا وطاعة!!

موقف بسيط كلنا نعايشه ويؤسفنا أننا كلنا نعايشه لكنه يحدث فعلا، الآن أنت وزميلاتك لديكم في جوالاتكم برامج تتصلون فيها بالناس، زميلتك وضعت جوالها، فبكل سهوله يمكن أن آخذه وأفتحه وأفتح الرسائل كعمل عادي! ونقول: (نحن زميلات، عادي)! هذ اسمه ما لا يعنيك! وإذا فعلت فتب إلى الله. حتى لو كانت زميلتك راضية، فإذا كانت راضية خرجتِ من التجسس لكنك دخلتِ فيما لا يعنيك! نحن بأنفسنا مبتلون، فلا نفتح ابتلاء الناس.

القاعدة الثانية: {بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَو أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ}[2] استبصر نفسك

لا تترك نفسك تائهًا، وفي كل يوم يأتي مَن يقول لك: (أنا أشعر أنك...)، كل شخص يقول لك رأيه في نفسك، وأنت لم تفتش مَن أنت، ولا نقاط ضعفك ولانقاط قوتك...إلخ.

تفرّغ لما يعنيك–التي هي نفسك–فماذا تفعل معها؟ أولًا اكتشفها، انظر إلى ضعفك، انظر إلى الأشخاص الذين هم سبب لضعفك أو يزيدون ضعفك ضعفًا، وهذا الأمر لمّا تتبينه ستبدأ أولًا بعلاجه.

مثلًا نقطة ضعفك النوم، يمكن أن تنام فتترك الصلاة، يمكن أن تنام طوال النهار في رمضان، بالكاد تصلي الظهر وتنام وتصلي العصر وتنام، نقطة ضعفك النوم الآن، نقطة ضعفك زميلاتك، نقطة ضعفك الهاتف، كل واحد عنده نقطة ضعف.

(1) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني.

(2) [سورة القيامة: 14-15]

أحيانًا لا تكون نقطة ضعف مع الناس، يمكن أن تكون نقطة ضعفك أنك سيء الظن، فمثلًا لو دق الجيران الجرس، فقبل أن تصل الباب تتجمع لديك مائة خاطرة كلها سوء ظن، وأنهم سيقولون ويفعلون...الخ، فلما تصل إلى الباب يتبين أن الأمر مختلف! وهذا الطريق كله كبائر من الذنوب! يجب أن تستوعب ما هو سوء الظن وما حُكمه؟ سوء الظن اسمه ظن داخل نفسك، وهو في حد ذاته كبيرة! هذه الوساوس يمكن أن تكون نقطة ضعفك، أو يمكن أن تكون نقطة ضعفك في عدم رضاك عن أي شيء من عطايا الله، فالله يعطيك ولا ترضى! وعندك تاريخ في أنك أصلًا ليس لديك حظ وتندب على نفسك دائمًا! هذه عيوب، وتكون التربية أيضًا من أسبابها، أي أن التربية تُغذيها.

على كل حال، انظر إلى عيوبك التي ابتليت بها كطبع أو جاءتك من الأسباب، ليس مهمًا الآن مصدرها، المهم أن تنتبه لعيوبك، وانتبه أيضًا للناس الذين يثيرون عيوبك. أنت تحب الكلام مثلًا وبالتأكيد مادمت تحب الكلام فستأتي الغيبة، فهناك أناس يثيرون فيك حب الكلام، فقط يضغطون على الزر: ما أخبار كذا؟ وأنت تعطيهم! إذًا هؤلاء الناس بالذات كن على حذر منهم.

تأتي مثلًا في شهر رجب، شهر مُحرَّم، وتريد أن تحبس نفسك، وأنت تعلم أن الله-عزَّ وجلَّ-قال: {فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ}[1] فأول ما تدخل الشهر وتصبح الصباح، يكلمك أناس يحتاجونك في مشكلة كبيرة، وفي هذه المشكلة يجب أن تغتاب عدة أطراف لكي تدخل فيها! أعلن توبتك إلى الله، استعصم بالله، اعتصم بالله وابذل جهدك أن تدفع عنك مثل هذه الأمور قدر ما تستطيع، فلا تدخل في مثل هذه الأمور بكل بساطة.

القاعدة الثالثة: الحزم {خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ}[2] استعمل مع نفسك الحزم خصوصًا في نقاط الضعف!

فنفسك كلما تؤدبها تتأدب.

نأخذ نموذج لكي نتصور، والنموذج هذا يصف الحرية والعبودية:

في نهار رمضان، هل تجرؤ نفسك يا أيها المؤمن أن توسوس لك أن تذهب فتشرب ماء؟ أبدًا، لا تستطيع، لا توسوس لك أبداً، في النهار هي مؤدبة. تعال انظر في الليل ماذا يحدث! كلما قالت: كُل. تقول لها: سمعًا وطاعة. كلما أشارت فقط، تقول: سمعًا وطاعة. فلا تستخدم معها الحزم مع أنك عندما استخدمت معها الحزم في النهار تأدَّبَت! ما وسوست حتى لك! جاء الليل فتركتها. في النهار كنت تقودها أما في الليل فهي التي قادتك! إلى أن أصبح في النهار حرمان وفي الليل

(1) [سورة التوبة: 36]

(2) [سورة التوبة: 36]

انتقام! المشكلة ستأتيني بعد ذلك، بعد هذا لن يكون هناك تركيز في الصلاة، ولا انتظام في مواعيد النوم، كله بسبب هذه الطاعة العمياء! سنعرف من أين تبدأ الطاعة العمياء.

الآن في مسألة الصيام والأكل فالحمد لله على الأقل حقَّقنا المقصد الأساسي من الصيام، ففي النهار لا توسوس لي، ثم يأتي الليل وقد فعلت ما فعلت. نأتي لمشكلة ثانية: في النهار توسوس لي بالنوم، وكلما فتّحت عيني لكي أقوم تقول لي: فقط خذ غفوة قليلًا، وأنا أطيع! إلى أن يأتي الظهر ولن تشبع! وتقوم صلاة الظهر وأنت مُتعب!

والصلاة صلاحها صلاحٌ ليومك، صلاح الصلاة صلاحٌ لبقية عملك، قبول الصيام مرهون بصحة الصلاة

انظروا كيف الخلل الآن! صحيح أننا نحبسها عن الطعام وهذا خير وبركة علينا كوننا رُبِّينا على هذا فأدبناها فتأدبت نفوسنا ولا تستطيع أن توسوس لنا، لكنها أتتنا بشيء آخر مثل النوم.

نأتي إلى الجهة الثانية خصوصًا النساء وقت الطبخ، فكل ما تطبخونه ناتج عن وساوس النفس طبعًا ووساوس شياطين الإنس، لأنهم يقولون لكِ: نعلمك طبخة سهلة، وأن الطبخات كلها سهلة، وانقضى اليوم! وأنت ماذا تفعل؟! تخدم هذه النفس، لا تخدم اللقاء عند الله! قد تقول: لكن عليَّ واجب والأهل والناس حولي ومسؤولياتي وإفطار صائم الآن أيضًا! نقول: **كن صادقًا مع الله** وأنك لست مطاوعًا لنفسك فقط.

أي لا تقم من النوم فتقول: أشتهي أن أطبخ لأهلي كذا وكذا، فالذي يقوم بالواجب مختلف تمامًا عن الذي يستمتع ويتصفح لكي يُخرج الطبخات! وأيضًا في النهاية يزيّن! بالتأكيد هذا ليس قيامًا بالواجب! ثم انظر ماذا يحصل: الصلاة التي هي عماد الدين وعلى أساسه يكون قبول الصيام، انظر صلاة الظهر ما حالها! انظر صلاة المغرب ما حالها! انظر صلاة العشاء ما حالها! انتهينا من الثلاثة فرائض، انظر صلاة الفجر ما حالها! أي أننا لا نخرج ولا بفرض معتدل!! نقول: الظهر تقوم وأنت مرهق من النوم، اذهب إلى الطبخ وانظر كيف يكون شكل العصر؟ الآن ضع لهم الإفطار وافعل وافعل! انسَ نفسك! وبعد هذا الجهد كله تعال إلى صلاة العشاء وانظر أين انت؟! ثم تأتي صلاة الفجر وما ندري ماذا نقول! خمس فروض في اليوم كلها تضيع ثم تقول: أنا ما نسيت نفسي! هذا هو النسيان للنفس، والله يعلم صدقك. منكم مَن هم مسؤولون، هناك عوائل كبيرة مسؤولة عنها، الله يعلم صدق العبد، فكونك تقوم بهذا العمل على أنك تقوم بالواجب على حدّه يختلف عن كونك جالسًا تستمتع وتطاوع نفسك! فرق بين الحالتين.

إن صدقت أعانك الله. إن كنت تطاوع هوى نفسك ستكون من المذمومين، وهذا يعني أنك لم تحصِّل التربية المطلوبة من الشهر. خذ شأن الدين بقوة، لا تتخذوا دينكم لهوًا ولعبًا، كن على حذر من أن يكون الدين في النهاية لعب أو مجرد أعمال توارثناها ما عندنا اعتقادات تجاهها.

القاعدة الرابعة: الاعتناء بالإخلاص

من تزكية النفس بعد أن تكتشف ما نقاط عيبها وتعاملها بالحزم، انظر إلى نقاط القوة التي رزقك الله إياها واغتنمها بتحقيق الإخلاص فيها. فكما لدينا نقاط ضعف لدينا نقاط قوة، كما أنك يمكن أن تطاوع نفسك في كذا وكذا، لكنك إذا أمسكت المصحف وبدأت تقرأ فربنا أعطاك نَفَسًا في أنك تقرأ ساعة أو ساعتين. هذا العمل اغتنمه، لكن لا تترك نفسك بصورة منفردة، لا بد أن تعتني بالإخلاص، تعتني بالصدق، تعتني بالباعِث، لا تقم بالعمل على أنه عادة أو على أساس أنه قدرة وأن الأمر سهل عليك، لا تقم بهذه الصورة! أنت ممن وهبك الله مالًا وتتصدق، هذه العطية التي أعطاك الله إياها، أعطاك مالًا وأعطاك انشراح صدر، لأن هناك أناس كثر أعطاهم مالًا لكن ما وقاهم الله شح أنفسهم! فعندما يكون الله قد وقاك شح نفسك وأعطاك مالًا وتنفق، يجب أن تجمع قلبك لحظة الإنفاق لكي تزكو نفسك.

القاعدة الخامسة والأخيرة: كثرة مراجعة تصرفاتنا وأفعالنا مع الله

أي كما قال عمر -رضي الله عنه-: "حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا".

أسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعله شهرًا مباركًا علينا وعلى المسلمين، وأن يرفع عن إخواننا في كل مكان، وأن يبارك لنا في القرآن ويجعله ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.